رسالة الأدب

بين الاصفهانى والثعالبى

للاستاذ حامد حفنى داود

كثيرا ما تكون ذاتية الأديب سببا فى تضارب آرائه أو هدمها وخاصة حين يعمد إلى مقارنة كاتب بآخر من كتاب تاريخ الأدب العربى ، فيحمله تعصبه للواضع أن يقدم آثاره على آثار غيره ، أو يقدمه على أترابه من أجل سفر واحد من أسفاره

هذا ما لمسته حين أثار جماعة من الأدباء القاشا حادا حول كتاب « الأغانى » للأصفهانى وكتاب « يتيمة الدهر » للثعالبى . وكانت المفاجأة عجيبة حقا حين رأى ذلك الناقد الكريم أن كتاب الأغانى أدى إلى الرسالة الأدبية القدر الذى لم يؤده كتاب اليتيمة . وامل ذلك الناقد هاله أن يقع كتاب الأغانى فى واحد وعشرين جزءا على حين يقع الآخر فى أربعة أجزاء . وعلى هذا أصبح الأصفهانى — فى نظره — أحق بالتقديم من صاحبه

هذه أحكام سريعة مليئة بالخطأ والعيوب . ولعله لم يحملنا على الوقوع فيها إلا فى الأحكام السطحية التى نرسلها قبل الدراسة العميقة والآراء المحسة

° ° °

ولو أننا نستعرض حياة الأصفهانى فى القرن الرابع والثعالبى فى أوائل الخامس ، ثم أخذنا نوازن بين آثارهما ومقوماتهما الأدبية لاستطعنا أن نجيل الحديث على غير هذا النحو ، وأن نرسل أحكاما دقيقة تقوم على الحجة والبرهان

كان الأصفهانى (٣٥٦ هـ) والثعالبى (٤٢٩ هـ) شيخى عصرهما فى تاريخ الأدب ودراسته . وقد حملا إلينا خلاصة الآثار الأدبية التى وصلت إلى علم هذين القرنين . ولكن شتان ما بين الرجلين فى طريقة الأخذ وفى طريقة علاج النص الأدبى

ولعلنا نجد فى حياة الرجلين وآثارهما وأسلوبهما ما يعيننا على تلمس ما بينهما من هوة واسعة فى نقل « المادة الأدبية » إلينا وفى طريقة حملها وأدائها

عاش الأصفهانى فى النصف الأول من القرن الرابع وهو عربى من نسل بنى أمية ، وولد بأصفهان يوم كانت موطن كثير من الأشراف الهاربين والأمويين الهاربين خلال العصر العباسى الثانى . ولكنه انتقل إلى بغداد سريعا حيث نشأ وتعلم . وهناك جمع مادة كتابه الأغانى من الأخباريين وتلقفه من أفواه المؤرخين والمغنين ورواة الشعر ، فى الوقت الذى كانت فيه بغداد تموج بميادين الشعر ، وتكاد تضيق بالشعراء والأدباء على اتساعها ، وهؤلاء غير من كانوا يفدون عليها من الدول الإسلامية شرقا وغربا وخاصة دولة بنى بويه عماد السياسة والحضارة الإسلامية فى القرن الرابع

أما الثعالبى فإنه ولد بنيسابور ونشأ فى بلاد المشرق حين كانت مسرحا للدول الفارسية الناشئة فى ذلك العصر ، وفى هذه البقعة من الأرض خالف الثعالبى فى نشأته أعيان عصره حيث أخذ الأدب عن رغبة ملحة وميل شديد ، فلم يحمل نفسه عليه حملا أو يكرهها على صناعته كرها ، بل كان ملهما بطبيعته وفطرته . وقد وهب إلى جانب ذلك قريحة وقادة وسجية مواتية ، يدلك على ذلك أنه كان فى أول أمره فراء يبيع فراء الثعالب فى الأسواق . ولو كان من صناع الأدب ومتكلفى الشعر الذين يكرهون أنفسهم ويحملونها على علاج هذه الصناعة لصعب عليه أن يغير مجرى حياته على هذا النحو العجيب . وهو إلى جانب هذه الطبيعة المواتية يحمل بين جنبيه نفسا محسة وقلبا نابضا يطوع له صناعة الأدب ويفتح أمامه طريقا سهلا ميسورا فيجد نفسه مشاركا لأدباء عصره فى إحساسهم مرتبطا بعواطفهم حافظا لأشعارهم ورسائلهم . ثم يأبى عليه هذا الطبع السمح إلا أن يقوده إلى الكتابة الأدبية المنظمة عن بيئته التى عاش فيها ، فيجد نفسه مرة أخرى حيال نزعة ملحة إلى تأريخ الحياة الأدبية خلال القرن الرابع كله ، فيضع كتابه « يتيمة الدهر » . ويخرج الكتاب صورة صادقة لهذه النفس فى سهولتها وهذه السلقية فى نظامها وهذه الحافظة فى وعيها وهذه الثقافة فى اتساعها

أما الأصفهانى فيضع كتابه السالف فى واحد وعشرين جزءا

وهو أضعاف مضاعفة لكتاب صاحبنا ، سواء فى مادته وأخباره. تراه يجمع فيه مادة وافرة من الشعر والغناء وأخبار الشعراء حتى أنه — كما يحدثنا أبو محمد المهلبى — وضعه فى خمسين سنة وأنه لم يستطع أن يكتبه إلا مرة واحدة فى عمره . ويكفيه فخرا أن الصاحب بن عباد زعيم الشيعة وعميد الأدب العربى فى النصف الثانى من القرن الرابع — يمدحه ويثنى عليه ؛ لما رآه من استقصائه للأخبار وجمعه لحكايات الشعراء حتى قال فيه : « ولقد اشتملت خزانتى على مائة ألف وسبعة عشر ألف مجلد ما فيها سميرى غيره . ولقد عنيت بامتحانه فى أخبار العرب وغيرهم فوجدت جميع ما يعزب عن أسماع من عرفه بذلك قد أورده العلماء فى كتبهم ، ففاز بالسبق فى جمعه وحسن وضعه وتأليفه . » (١)

وعلى الرغم مما امتاز به الأصفهانى فى جمع الأخبار واستقصائه إياها فإنه لم يأمن غائلة النقاد الذين جاءوا بعده: قال ياقوت. « وقد تأملت هذا الكتاب وعنيت به ومطالعته مرارا وكتبت منه نسخة بخطى فى عشر مجلدات ونقلت منه إلى كتابى الموسوم بأخبار الشعراء فأكثرت ، ورجعت تراجمه فوجدته يسهو بشىء ولا يفى به فى غير موضوع منه » (٢) وضرب الأمثال لذلك بحديثه عن أبى العتاهية وأبى نواس والأصوات المائة فى الغناء

* * *

وهنا يحق لنا أن نتساءل : هل كان الأصفهانى فى كتابه هذا يصور نفسه ويرسم إحساسه ومشاعره التى تربطه بأدباء عصره — كما فعل الثعالبى — ؟ الجواب : لا . لم يكن كذلك فى شىء لأنه كان يؤرخ لا أكثر . كتب الأصفهانى كثيرا ولكنه لم يكتب غير التاريخ الأدبى الصامت . وملأ أسفارا ولكنها لا تعدو أن تكون أخبار الأولين والمعاصرين من الشعراء . فهو أخبارى من الطراز الأول ، ومحدث مستطرد أمين بكل ما فى كلمة المحدث من معنى . ولكنه لم يرسل نفسه على سجية الأديب ، فيذكر رأيه أو يبدى لناقده فيمن يخبرنا عنهم

ولعلك حين تستعرض طريقة العرض عند الرجلين تقف على صدق ما نذهبه — فأنت ترى الأصفهانى حين يتحدث عن الشاعر يصدر حديثه عنه بسلسلة طويلة من نسبه ، يستطرد فيها ما شاء له الاستطراد ، وقد يأتى فيها بالفريد المقبول وما كان يلذه المسامرون فى ذلك العصر حين كانوا يمنون بالأنساب ويتفاخرون بها . ولكن الاستطراد لا يقف به عند هذا الحديث الذى يرسله فى حلقات النسب ، فيتجاوز النسب إلى ما وراءه وينتقل بك إلى الحديث عن شخص آخر قد لا يربطه بالسابق إلا محض الاستطراد . وهو رباط شكلى بحت — وهنا يذكر لك أشعارا وقصصا وروايات تتعلق بالشخص الجديد الذى أدار الحديث حوله . حتى إذا ما انتهى به المطاف عاد إلى صاحبه الأول الذى ترجم له ، فيحدثك عما وقع له من أحداث ، وقد تنتهى به هذه الأحداث الجزئية المتعلقة بصاحبه إلى الحديث عن تاريخ عصره وما كان فيه من عبر ومواقع : ثم يحدثك آخر ذلك كله عن شعر صاحبه والأصوات التى غنيت من هذا الشعر وما لم يغن وما يعتبر من الأصوات المائة التى ذكرها فى سائر كتابه . ويذيل الترجمة بخبر وفاة صاحبه إن كان فى الاستطراد ما يناسب ذلك

فأنت ترى أن عنصر الاستطراد هو المنهج الأصيل فى كتاب الأغانى وهو عين المنهج الذى اتبعه شيوخ الأدب العربى من قبل أبى الفرج . فالجاحظ (٢٥٥ هـ) وابن قتيبة (٢٧٦ هـ) وأبو على القالى (٣٥٦ هـ) وغيرهم من عيون الأدب العربى شرع واحد فى هذا المنهج . وقد أثبت المنهج العلمى الحديث أن منهج الاستطراد كان شائعا فى كتابات القوم وأساليبهم منذ بكر الحياة الأدبية فى الجاهلية والإسلام وظل حتى أواخر القرن الرابع الهجرى

* * *

ثم جاء أبو منصور الثعالبى فى أواخر القرن الرابع وخرج للناس بمنهج جديد لم يسبق إليه ، حيث ترك صناعة الأدب على طريقة الاستطراد الذى شغف به القوم فى حياتهم الأدبية . وأخذ يتحدث حديثا منظما عن تراجم الشعراء والكتاب ، وهو

١ — الصاحب بن عباد لصاحب هذا المقال (تحت الطبع)
٢ — الأغانى — تصدير الجزء الأول ص ٣٤